محمود درويش: زيتونة فلسطين

أ.د.عبد النبي اصطيف

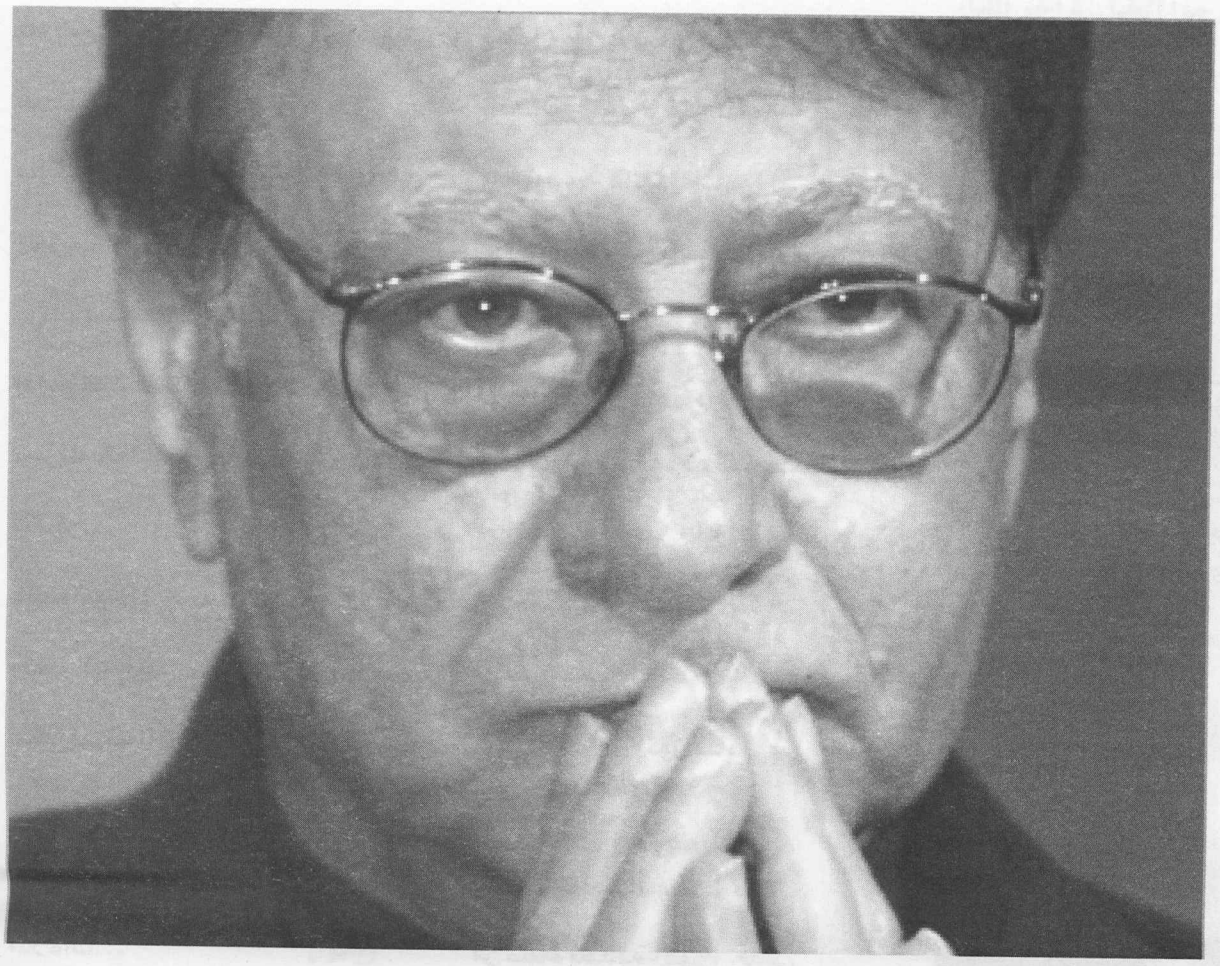

ليس ثمة من يماري في مركزية فكرة «الأرض» في حياة محمود درويش وشعره، بل في حياة الشعب الفلسطيني كله: داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، وفي الضفة الغربية وقطاع غزة، وفي مختلف المنافي في الوطن العربي، والعالم. وربما كان هذا ما يفسر مساءَلَة الجميع، ولاسيما الفلسطينيون، لمحمود درويش، عندما غادر فلسطين وقرّر أن يعيش خارجها بعيداً عن قهر الاحتلال، إذ لم يستطع أيّ منهم فهمَ، أو تفهّمَ، فرار درويش من وطنه، الذي يمثل فسحة الحياة الحقيقية بالنسبة إلى أي فلسطيني، فبمقدار ما تملك من الأرض –أرض الوطن، فلسطين التاريخية– بمقدار ما تملك من فسحة الحياة. ولكن الوطن كلّه، (عندما غادره درويش بل إنه لا يزال)، بات نسراً يرسف في الأغلال ولا يملك غير إطفاء غضبه في عيون من يحدّق به من أبنائه:

«وطني! يا أيها النسر
الذي يغمد منقار اللهب
في عيوني
عبر قضبان الخشب
...
أيها النسر الذي يرسف في الأغلال
من دون سبب
أيها الموت الخرافي الذي كان بحب
لم يزل منقارك الأحمر في عيني
سيفاً من لهب
وأنا لست جديراً بجناحك
كل ما أملكه في حضرة الموت
جبين.. وغضب»

وربما كان أجمل ما يفصح عن علاقة درويش بالأرض قصيدته «تضيق بنا الأرض» التي يمكن أن تُعَدّ معادلاً موضوعياً لعملية التطهير التي يمارسها الكيان الصهيوني ضد أبناء الشعب الفلسطيني في فلسطين وخارجها. لأن الحل الأمثل الذي يمكن أن يُرضي هذا الكيان هو أن يختفي الفلسطينيون من على وجه البسيطة حتى تبقى الأرض، التي زعموا أنها من غير شعب، للصهاينة الذين يرون أنهم شعب بلا أرض، وأن أمن مستقبلهم لا يتحقق إلا بتطهير أرض فلسطين من سكانها الأصليين لتكون لهم وحدهم.

يقول محمود درويش في قصيدته «تضيق بنا الأرض» من ديوانه «ورد أقل» الذي صدر عام ١٩٨٦، عن دار توبقال في الدار البيضاء في المغرب:

«تضيق بنا الأرض. تحشرنا في الممر الأخير، فنخلعَ أعضاءنا كي نمرّ
وتعصرنا الأرض. يا ليتنا قمحها كي نموت ونحيا. ويا ليتها أمّنا
لترحمنا أمّنا. ليتنا صور للصخور التي سوف يحملها حلمنا
مرايا. رأينا وجوه الذين سيقتلهم في الدفاع الأخير عن الروح آخرنا
بكينا على عيد أطفالهم. ورأينا وجوه الذين سيرمون أطفالنا
من نوافذ هذا الفضاء الأخير. مرايا سيصقلها نجمنا.
إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة؟
أين تطير العصافير بعد السماء الأخيرة أين تنام النباتات بعد الهواء الأخير؟
سنكتب أسماءنا بالبخار الملون بالقرمزي
سنقطع كف النشيد ليكمله لحمنا
هنا سنموت.
هنا في الممر الأخير.
هنا أو هنا سوف يغرس زيتونَهُ... دمُنا» (ص ١٧)..

درويش يشكو من أمر غير عادي، فالأرض، وعلى الرغم من رحابتها، لم تعد تَسَع الفلسطينيين، إنها تتقلّص من تحت أرجلهم بالاستيطان الذي يزحف في جسد الوطن كالسرطان، ويلاحقهم زحف هذا الاستيطان حتى خارج وطنهم (في لبنان وسواه) حتى يبتعدوا إلى أقصى ما يمكن عن هذا الوطن، وليجدوا أنفسهم في الممرّ الأخير، حيث لا مجال للعبور غير فسحة تضطرهم إلى خلع أعضائهم حتى يمضوا إلى فضاء آخر. بل إن هذه الأرض تمضي إلى أبعد من هذا عندما تعصرهم، وكأنها تريد أن تلفظهم خارجها، أو أن تدفنهم في أحشائها، وعندها لا يملك درويش غير تمنّي أن يكون الفلسطينيون قمحها، عندها فقط يمكن أن يحتفظوا ببقية أمل هو دورة الحياة الطبيعية في الموت والحياة من جديد، ولكن ذلك يبدو خارج دائرة متناول هذا الشعب –الطريدة، وهكذا تأتي أمنية أخرى هي أن تكون هذه الأرض أماً ترحم أبناءها، والأم وحدها يمكن أن ترحم خرّيجي رحمها مهما فعلوا. وتتلوها أمنية أبعد هي أن يكون الفلسطينيون صوراً، مجرد صور، للصخور التي يحلمون من خلالها بمستقبل لا يبدو واعداً بغير المزيد من الملاحقة. وماذا تملك الطريدة عندما تُحشَر في الممر الأخير، في دفاعها الأخير عن نعمة الحياة، غير أن تقتل من يطاردها، وتبكي عليهم في آن معاً، عندما ترى أطفالهم وقد خلت أعيادهم من رؤية آبائهم، الذي سيرمون بدورهم أطفال الفلسطينيين من نوافذ هذا الفضاء الأخير، حتى لا يبقى منهم باقية، وما الذي يملك هؤلاء الأطفال سوى أن يتعلقوا بفسحة السماء ويصبحوا نجوماً تصقل المرايا التي تحتضن صور الآتي من الأيام. وهكذا يأتي السؤال المزلزل الموجه إلى الإنسانية كلها، وهي التي ترقُب ما يجري دون أن تحرّك ساكناً، وكأن هؤلاء الفلسطينيين صنف آخر من المخلوقات لا يمت إليها بصلة، ولا تثير ملاحقتهم من على وجه هذه الأرض أي تعاطف أو رحمة. «إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة؟» وإلى أين يمكن أن تمضي العصافير عندما تبلغ السماء الأخيرة؟ وأين يمكن أن تنام النباتات عندما تبلغ الهواء الأخير؟

إن الفلسطيني لا يملك في النهاية إلا أن يموت، فهذا قدره، ولكن موته ليس النهاية التي يرجوها أعداؤه، سيظل اسماً مكتوباً بالبخار القرمزي يسكن فسحة ما من هذا الكون، وسيبقى نشيداً تتردد أصداؤه في جنباته، وإذا ما اعتقد العدو أنه سيدفن بموته جريمته في تطهير الأرض من الفلسطينيين، فليتذكر أن الدم الفلسطيني ليس غير زيتونة مباركة لا يمكن أن تموت، ذلك أنّها ستنبعث كالعنقاء من جديد، لتهب الحياة نور الهداية الإلهية. وكيف لا يكون ذلك وقد كانت فلسطين أبداً أرضاً مقدسة تنشر النور الإلهي في سائر أرجاء الكون، والغريب العجيب، والمفارقة المروِّعة، هي أن تردّ «الإنسانية المزعومة» على هذا النور بالنار والقتل والتدمير، فالجاني لن يقرّ له قرار، ولن يهدأ له بال، ما دام هناك بقية باقية، أو أثرما، للضحية، التي لن تموت، وستبقى لأن على هذه الأرض ما يستحق الحياة. نعم:

"على هذه الأرض ما يستحق الحياة:
على هذه الأرض سيدة الأرض،
أمّ البدايات، أمّ النهايات،
كانت تُسمّى فلسطين.
صارت تُسمّى فلسطين.
سيدتي: أستحق، لأنك سيدتي، أستحق الحياة" (ص١١).

نعم يا درويش تستحق الحياة، لأنك كنت الزيتونة التي منحت العالمَ النورَ – نورَ الأمل والهداية – فنمْ قريرَ العين في حضن سيدتك فلسطين.